

## أكرمها بمعرفتها جمانة ثروت كتبي



□ تقرأ أو تسمع أن من الأمور المهمة: (أن تعرف نفسك)، وبالطبع المراد يختلف بحسب السياق، لكن بإجمال: حقًا من المهم أن تعرفها.

إنك إذا عرفتها؛ تنبّهت إلى التغيير فيها من أول وهلة! وهذا ما يُمكّنك من محاولة السيطرة عليها منذ البداية، فإذا دبّت بوادر الغيرة أو الحسد أو الطيش أو العنف ونحو ذلك؛ عرفت ذلك منذ البداية، وقلت لها: مهلاً مهلاً، لا أريد لنفسي أن تكون هكذا!

والعكس في الخصال الطيبة، فنتيح لك المعرفة بنفسك أن تُمسك بزمامها فتوجهها، وتُنمّي جانب الخير فيها، فإذا لَحَطتْ بادرة عَوْن أو كرم أو غبطة أو إيثار ونحو ذلك؛ أدركتهم حينها، وأخذتْ نفسك في اتجاههم رويدًا رويدًا؛ حتى يكون ذلك طبعك الذي تريد.

وإنك لتُدرك بهذه المعرفة أهواء نفسك، والتي تلج إلى الشهوات أو الشبهات من خلالها، وتعمى بصيرتك عن اتباع الحق والهدى بسببها، فإن لم تُكسبك معرفتك بنفسك إلا إمامًا بأهوائك لكفى بها فائدة! فالهوى داء، والانسياق خلفه انسياق وراء هاهويّة من الغرور بالنفس، والعلو بالذات!

وكيف يُؤمّل الإنسان رُشدًا  
وما ينفك متبغًا هواءً؟

\*\*\*\*\*

يظنُّ بنفسه شرفًا وقَدْرًا

كأنَّ الله لم يخلُق سِوَاهُ!"

وأزعم أن الأمر فوائده أكثر من ذلك، فمن فقه نفسه عرف كيف يختار صحبه، وليس الأمر عنده مجرد الظروف التي تُهيئ لبعض الأُنفس الاجتماع في مكان، بل من عرف نفسه؛ لمح شبيهاها أو قُدوتها في غيره، فأقدم وبادر للتعزّف عليه، وتوثيق أواصر القرى لديه، ومن لمح اختلافه العميق الذي لا يمكن ردم فجوته؛ نأى بنفسه عنه، واقتصر على المطلوب والواجب من مواقف الاجتماع معه.

وحين تعرف نفسك جيدًا؛ يمكنك تجنب المواقف والمحدثات التي ستؤلمك، وتلك التي ستُظهر ضعفك، فيمكنك من خلال هذه المعرفة صيانة نفسك، وحفظها عن إظهار الضعف والفاقة أمام الخلق. وحين تعرفها تستطيع أن تخطو نحو علاج ضعفها، وموضع مرضها، وهذا يحميك من المكاربة، وادعاء الكمال، ولوم الآخرين... فأنت تعرف داءك، وساع في مداواته، وكفى بهذا كرامةً وفخرًا.

أنت محسّن إلى نفسك أيما إحسان؛ حين تكون على دراية بحاسنها ومساوئها، ومُقَرّ بالجانبين دونما مكاربة، ولا إفراط في جانب وتفريط في آخر. يكفيك أنك بهذه الدراية منشغل بإصلاح نفسك بدل تسليط الضوء على مساوئ الآخرين، ولا أعني بهذا أنك لا تُسدي نصيحةً ولا تُبدي استنكارًا لمنكر بين، بل أعني أنك تُدرك يقينًا أن ما لك قدرة على إصلاحه هو أنت، بينما الآخرون فكل ما هنالك كلامٌ تقوله، وعلى الناس الفعل، اللهم إلا أفرادًا معدودين، قد يكون لك معهم أكثر من القول بقليل.

قال الله تعالى: {قد أفلح من تزكى} [الأعلى:14] "قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلق" [تفسير السعدي] وقال سبحانه: {قد أفلح من زكّاه، وقد خاب من دساها} [الشمس:9-10] "قد فاز بمطلوبه من طهر نفسه بتحليلتها بالفضائل، وتخليتها عن الرذائل، وقد خسر من دس نفسه مخفيًا إياها في المعاصي والآثام" [المختصر في التفسير] يمكننا أن نبدأ تطهير نفوسنا من المساوئ بعد ثلاثة أنواع من المعرفة: معرفة المساوئ للتخلص -أو التّخفّف- منها، ومعرفة الفضائل للترقي بها والتحلّي بحليتها، ومعرفة أنفسنا وأحوالها قُربًا وبعُدًا ومواقعةً.

أظن أنه من الصعب المبادرة لإصلاح الذات وصعود الدرجات العُلى في تربية النفس لمن لا يعرفها! فلا يفهم تفسير تلك الخَلجات التي تُراوده، ولا يحسن تفسيرها، أو اعتاد على تجاهلها دون مساءلةٍ أو تفكير. فلنتوقف مع أنفسنا يرحمكم الله، ولنحسن تربيتها قبل أن يحلّ لجأها!

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها.

جمانة بنت ثروت كتبي